

من خصائص أصل اللغة العربية

الأستاذ أحمد عبد الرصيم الساجي - جامع الأزهر

اللغة العربية خصائص ومميزات يمتاز بها غيرها لا تدانيها فيها لغة من اللغات فانت تستطيع ان تصنع من مفرداتها المألوفة قطعاً، ما تسحر به الالجاب وتأخذ بالانهام وتتألق بالمقول في عالم السمو والحر والابداع .

وعناية العربية بجمال الالفاظ وحسنها ، لا لدات الالفاظ . وانما اهتماما من اللغة العربية بالمعنى . وذلك حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو الذي يهيب له الحالة النفسية التي تحفز به الى الحركة والعمل وتبعث به الى المقصود في ثوب مغوف ووسام لامع جذاب اخاذ ساحر .

(1) الدلالة المعنوية

ولقد ثبت من المقارنة بين اللغات ان اللغة العربية من اكثر اللغات دلالة معنوية بل ان الكثير من الالفاظ العربية قد فقدت الدلالة الحسية .

قال جورج زيدان : فالفعل « قضى » معناه « حكم » والاصل فيه القطع الحسي والفعل « عقل » معناه « فهم » وهو مأخوذ من عقل الناقة أي ربطها والفعل ادرك ، الاصل فيه البلوغ الحسي فيقال : فلان ادرك القطار أي لحقته ؛ والفعل « بنى » وضع اصلا للدلالة على الوصول الحسي في المكان والزمان ، بل ان الاصل في معنى الفصاحة قولهم : فصح اللبن اذا ذهب رفوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضع و « الراي » اصله من « رأى » أي شهد بعينه

وفي العربية ابنية وصيغ وقوابل دالة على معان وصفات واحوال . فما كان على « فعلان » (بالتحريك) دل على الحركة والاضطراب كالنزوان ، والغليبان والضربان والهيجان . وما كان على « فعلان » (بسكون

العين) دل على صفات تقع من احوال كالمعشجان والفرحان والشعبان والريان والفضبان ، وما كان على « افعل » دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود واصفر واخضر ، وكذلك العيوب تكون على افعل نحو ازرق واحول واهور واقرع واقطع واهرج واخيف وتكون الادواء على « فعال » كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد .

والاصوات اكثرها على هذا كالتصراخ والنباح والضياح والرهاء والشغاف والخوار ، وفصل آخر منها على « فعيل » كالضجيج والهرير والهدير والصهيل والنهيق والزئير والصفير والنميق والنميب والخرير والصرير . وحكاية الاصوات على « فعلة » كالصرصر والقرقرة والفرقرة والقعقة والخشخشة واطعمة العرب على « فعيلة » كالسبخة والنفيسة والمريرة والنقيصة والعقيقة ، واكثر الادوية على « فعول » كاللوق والسعوط والوجود والحدود والدرور والنتول ، واكثر العادات في الاستكثار على « مفعال » نحو مطعم ومطعم ومضرب ومضرب ومضياف ومكثار ومهدار وامرأة معطار ومذكار ومثناث ومثام ،

وصيغ الافعال واوزانها في اللغة العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على سروري وظلال تنصاف الى المعنى الاصلي ، دون زيادة في اللفظ ومع الاحتفاظ بطابع التركيز والدقة قال الثعالبي في الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عز ذكره « وغلقت الابواب » وقوله ، يدبحون ابتداءكم » و (فعل) يكون بمعنى (افعل) نحو خبر واخبر وكرم وكرم ونزل وانزل ويكون مضافا له نحو افطر اذا جاوز الحد وفطر اذا قصر قال الشاعر:

لا خير في الافراط والتفريط

كلاهما عندي من التخليط

وقلت في كتاب المبهج : اياك والافراط الممل ، والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو استقى وسقى وامحضه الود ومحضه ، وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدها وانشطها اذا حلها .

(وفعال) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه وخاصمه وخاربه وقاتله ويكون بمعنى فعل كقوله عز وجل ، قاتلهم الله اي قتلهم .

(وفعال) يكون بين اثنين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراهي به ويكون بمعنى اظهر نحو : تفاعل وتجاهل وتماضى وتساكر اذا اظهر غفلة وجهلا ومرضا وسكرا وليس بفاعل ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(وتفاعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلاصه كما قال الشاعر :

تخلصني من غفلة التي منعمنا

وكت زمانا في ضمان اساره

وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا واعدنا رويدا

منى كنا لامك مقتوبنا ؟

ويكون بمعنى التكلف نحو تشجع وتجلد وتحكم ويكون لاخذ الشيء نحو : تادب وتفقه وتعلم ويكون تفعل بمعنى : فعل نحو تعلم بمعنى اصل كما قال القطامي :

تعلم ان بعض الشر خير

وان لهذه القمم انقسام

(واستفعل) يكون بمعنى التكلف نحو استعظم اي تعظم واستكبر اي تكبر ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استعظم واستقى واستوهب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اي قر ويكون بمعنى صار ، نحو استنوق الجمل واستنسر البغاث .

(وافتعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتوى اي شوى واقتنى اي قنى اي كسب ، ويكون لحدوث صفة نحو : افتقر واقتنن واما انفعل فهو فعل المطاوعة نحو : كسرته فانكسر وجبرته فانجبر وقلبت فانقلب قال ابن جنى : « فاذا رايت العرب اصلحوا الفاظها - العربية - وحموا حواشيها وهدبوا وصقلوا غروبها وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذلك انما هي بالالفاظ : بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنبؤه وتشريف ونظير ذلك اصلاح الوماء وتحسينه وتركيبه وتقديسه وانما المعنى بذلك منه الاحتياط لنوعى عليه وجواره بما يعطر بنشره ولا يمر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويفض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وذاك ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشمر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتكلف استمرارها . فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها وافخم قدرها في نفوسها فاول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها ومراميتها اصلحوها ورتبوها وبالقول في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة على القصد .

فكان العرب انما تعلى الفاظها وتديبها وتشبها وتزخرها عناية بالمعاني التي وراها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم لا شك اشرف من الخادم والاخبار في التلطف بغدوية الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يؤتى عليها او يجشم للحال تعب بها .

واعلم انه لما كانت الالفاظ للمعاني ازمة وعليها ادلة واليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة هيت

العرب بها فأولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (1).
 وشيء آخر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة في
 الواقع من غيرها . وهو أنها أكثر اللغات قبولا
 للاشتقاق . والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة
 أن تؤدي معاني الحضارة والاشتقاق في العربية يقوم
 بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الاصلي وتلويحه إذ
 يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية
 ومطاوعة ومشاركة ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه
 في اللغات الآرية مثلا إلا بالفاظ خاصة ذات معان
 مستقلة ، وصيغ الالفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة
 بين الجواني والبراني وبين ما هو حركة في النفس
 وما هو حركة في الجوارح . العربية تفرق مثلا بين
 الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادولفو الى
 هذه الظاهرة فلم يسعه إلا أن ينوه بها في كتابه عن
 الغزالي فقال « لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي
 والكبر الخارجي . الداخلي هو استعداد في النفس
 والخارجي ناتج من افعال الجوارح واللفظ الفرنسي
 الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil أما التكبر
 فأولى أن يكون مرادفه الفرنسي Superbe .

ولاحظ كارا دونو أيضا أن هذه الفروق المصنوية
 الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية
 ليس من اليسور نقلها في لفظ واحد الى اللغات
 الأخرى . وخاص من هذه الملاحظة الى التنويه بما
 تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل
 الفلسفي العميق ما دام أن أحداث تغيير طفيف في
 بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين
 الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها .
 ولا نزاع في أن منهج اللغة العربية الفريدة في الاشتقاق
 قد زودها بلذخيرة من المعاني لا يسهل ادائها في
 اللغات الأخرى في نطاق التركيز الجواني الذي هو
 شيمة الاسلوب العربي الاصيل وقد لاحظ السبوتي
 هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف
 الاشتقاق بأنه « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها
 معنى ومادة وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى
 الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلافا حروفا او هيئة .

وجلي : أن هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها
 من بعض تجعل من اللغة جسما هيا تتوالد اجزأؤه
 ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة ، وتفني

عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنزلة التي كان
 لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وأن هذا الارتباط بين
 الفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية
 ظاهرة وهي الحروف أو الاصوات الثلاثة . وثبات
 قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرة أو مختفيا
 مستترا . خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة
 تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية تسمح
 لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وأن طريقتها حيوية
 توليدية وليست آلية جامدة .

قال الدكتور عثمان أمين : وإذا أردنا مثلا على
 ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف
 فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية .
 فهو يرى في كلمة مثل « صهر » أي اذاب الجسم
 بالنار أنه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة
 من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات فنقول
 انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهور ، وفي
 العربية منهاجا آخر مخالفا للغات الأخرى فإن
 العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة .
 من غير أن تكون تلك الحركات اثرا لقطع أو بقية من
 أداة فيكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها
 فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول
 في مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول
 نحو : كتب وكتب وبين الفعل والمصدر في مثل علم
 وعلم وبين الوصف والمصدر في مثل فرح وفرح وبين
 المفرد والجمع في مثل اسد واسد وبين الفعل والفعل
 في مثل قدم وقدم وبين الاسم والاسم في مثل :
 سحور وسحور .

2 - العربية وفلسفة الاعراب

اللفة العربية : من اللغات العربية المنبت
 الواسعة الافق اتسعت فاحاطت بإبعاد انغلاقات
 الفكر وارتفعت حتى وصلت أرقى اختلاجات
 النفس .

ولقد زادت مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة
 على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الذي
 تعيشه الإنسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصاله الجاهدة المولدة
 المعمادة . والبيزات المطاوعة المتطورة .

(1) الخصائص لابن جني الجزء الاول من 225 - 228 . طبعة الهلال - مصر

ولما كانت معاني السمين مختلفة كان الأعراب الدال عليها مختلفا أيضا . وكأنه من قولهم : «عربت معدته» أي لسدت . كأنها استحالت من حال إلى حال ، كاستحالة الأعراب من صورة إلى صورة .

الأعراب إذن مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدراسين من علماء مقارنة اللغات أن الأعراب أرقى ما وصلت إليه اللغات في الوضوح والإبانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة إلا اليونانية واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة إلا الألمانية .

أما اللغات الأرية الحديثة - وتشمل معظم لغات أوروبا الحديثة - فقد خلت من حالات الأعراب ولا مبرر فيها بين الرفع والنصب والجر ، وإنما يقوم مقامها الحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها مما لا يخرج عن الوضع الخارجي في المكان ، هذا في حين أن اللغة العربية قد استلذت من أول الأمر - ما دام الأعراب مرهبا - وأن يكون الفكر الواسع محددًا للوضع الخارجي وأن يكون النظر إلى المعنى هو المبرر للتقديم والتأخير وتأكيد الإسناد ، وغير ذلك إلا تسرى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيدا أبوه ، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر ، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه .

فبالأعراب يعرف الخبر من الإنشاء والمفعول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والمتعجب من الاستفهام والنعت من الحال إلى غير ذلك .

وبالجملة : فتميز المراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الأعراب فالأعراب في مثل (ما أحسن زيد) بفتح نون أحسن وضم ذال زيد كانت « ما » نافية و«تريد أن زيدا» لم يحصل منه أحسان .

وإذا قلت (ما أحسن زيدا) بفتح النون والدال كانت « ما » تمجيبية و«تريد أن شيئا عجيبا جعل زيدا حسنا» .

وإذا قلت (ما أحسن زيد) بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية و«تريد معرفة أي شيء حسن في زيد علمه أم أدبه أم أخلاقه .. الخ ..

وانك لتحس هذا في كلماتها التي تمثل خطرات النفوس ونبضات القلوب وكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها .

ولهذا صارت - بفعل عوامل مختلفة - لغة هية بأوزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها مائة وإبانة وانصاحا من المعاني : الأعراب .

والعربية لغة تتوخى الإيضاح والإصالة والأعراب إحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غابة الإيضاح والانصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفي اللغات الخالية من الأعراب يعتمد أهل اللغة على القرائن وعلى إضافة كلمات إلى الجملة لفهم المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربما لا يطرد - كما يقول صاحب الطراز - فأوجب العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع اللبس والابهام .

والأعراب : مصدر اعربت من الشيء إذا أوضحت عنه . ويقال : فلان معرب عما في نفسه أي مبين له وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا إذا برفته . وذلك بأن تنسف أسفل حافره .

ومعناه : أنه قد بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره إلى مرأة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو وأصبح هو أم سقيم وغير ذلك .

وأصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما يعزى إليه من الفصاحة والأعراب والبيان ومنه قولهم في الحديث « الشيب تعرب عن نفسها »

والمعرب صاحب الخيل المعرب وعليه قول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطوى
صهيلا تبين للمعرب

أي إذا سمع صاحب الخيل المعرب صوته علم أنه عربي ومنه : العروبة . والعروبة الجملة وذلك أن يوم الجمعة أظهر أمرا من بقية الأسبوع لما فيه من التأهب لها والتوجه إليها وقوة الأشعار بها قال الشاعر العربي القديم :

يوالم رهطاً للعروبة صيما

فمن قال : زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التمييز من أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهمة أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم متفائرة كلها في الأدلة وإن استوت من طريق الإصراب فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الدهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراف وعلما اللغات، نوهوا بخصوصية الأعراب في العربية قال العلامة « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الأعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال البهانة : « لوي مسينيون » في حين أن اللغة السريانية قد نقلت أجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد أن تشيد بناء ضخما من الأعراب يضع أمام الإبصار مشهدا فلسفيا ذا روعة وأصالة .

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل إلى نهاية الإبداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والأعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه الملائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا إبهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل وضوح وإبانة وهدى وانصاح .

3 (العربية والحركة

اللغة العربية من أعرق اللغات منبتا وأكثرها رسوخا والقواما جلادة وأشدها بنيانا وفي ظل الحضارة الإسلامية صارت أبعد اللغات مدى وأوسعها أفقا وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الإنسانية .

واستطاعت العربية في رحاب عالمية الإسلام أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر وترتفع حتى تصعد أرقى اختلاجات النفس .

وقد يفرقون بين المعاني بالحركات وغيرها فبالحركة يقولون : « مفتوح » لئلا يكسر الميم وفتح التاء و« مفتوح » بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بناء التانيث وعدمها فيقولون امرأة طاهر بدون التاء إذا أرادوا طاهرة من الحيض لأن الرجل لا يشاركها فيه وإذا أرادوا طهارتها من العيوب الخلقية قالوا امرأة طاهرة لأن الرجل يشاركها فيها فيحتاجون إلى التمييز بينهما ومثله امرأة قاعد إذا انقلبا الحبل وقاعدة من العمود أي جالسة لأن الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فقال له من فيسر أعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له أمير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت أبي الأسود الدؤلي وفتت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها « ما أحسن السماء » فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا أسأل وإنما أنا تعجب » فقال لها اذن قولي « ما أحسن السماء » وأفتحي فاك . وسمع أبو الأسود قارئا يقرأ قوله تعالى « أن الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله فأكبر أبو الأسود ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الأعراب للمصحف بأمر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شيبيا بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقعناب

ومنا أمير المؤمنين شيبب

فاخذه عبد الملك بن مروان وسأله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم أقل هذا بل قلت : ومنا أمير المؤمنين شيبب بفتح الراء في أمير أي يا أمير المؤمنين فأمر بتخلية سبيله .

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى الأعراب عند العرب فقال : إن كلامهم أي العرب - واسع وكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الأعراب والإبانة إلا ترى أن قولهم : زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم .

ولقد زادتها مرونتها وقهرتها على التفوق تبلورا
وتفاعلا ونماد وامعتها طاقة خلاقة وحياء مدهشة .

وكان لحركتها التي امتازت بها : الاصلية
الجاهدة المولدة المطاوعة والميزات المطاوعة المتطورة ولم
تعد حروفا وقوالب فارغة يملأها الفكر فتحمله ،
بل انها بعض الانسان المسلم بعض كينونته ، هو
ينبوعها وهي مجراه وقلنا انها بعض الانسان المسلم
لانها لغة القرمان الكريم وانك لتجد الاحساس الحقيقي
متمكلا في مفرداتها وينجلي هذا في التركيب ، نكل
كلمة لها في الجملة مكان يحس بها التكلم وان شئت
بمباراة اخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

وتكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور
الفاظها مشاهد الطبيعة تكاد تتجلى معانيها في اجراس
الانفاذ وتمثل في نبرات الحروف كأنما كلماتها
نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشامل القوة .

فليس هنالك معنى من المعاني ولا فكر من
الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات
تعجز اللغة العربية ، عن تصويرها بالاحرف والكلمات
تصويرا صحيحا هي المقاطع يارز القسامات .

والحياة في العربية حياة خلاقة مبدعة ذات
مبقرة خاصة وكلماتها تنم بهذه الحياة في الحين
الذي نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جامدة
لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد ان تجتمع منها الى
بعضها وتؤلف بمباراة .

واذا كانت بقية اللغات أدوات للتعبير متى
بلغتها فقد بلغت الغاية التصوي وانتهت مهمتها فان
اللغة العربية لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان
يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر
من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال واللوق
والذكاء نكرة تندلع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها
لأنها في تفاعلها وتطورها كأنها كائن حي يذهب ويجه
ونموذج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية
ذات الاصول الثابتة تنفرع منها المعاني المتقاربة فمثلا:
النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجدر في مختلف
معاني البروز انظر الى فروع هذا الجدر فنجد ان
معنى :

نبت : برز من الارض ، ونبسط : اخرج
ماء البشر

ونبغ : خرج من العين ، ونبغ :
خرج وظهر

الى ماخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في
الاصل والعربية في مبقريتها لم تكتف بهذا المنطق
الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من
ذلك وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في
الكلمات فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال
من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه
تماما ، خذ مثلا كلمة « فضرور » ان اجتماع العين
والضاد ينقل احيانا على اللفظ وتناسق الحروف في
الكلمة يجعلها سريعة الانفصال من اخواتها في
المباراة وفي السرعة ، فماذا تفعل العربية لتتلاشى
هذا الامر انها تتساهل معك وتقول لك اذا لم تستطع
ان تلفظ كلمة « فضرور » فألفظ « فضرور » فانها
هي نفسها ، فهي لا تمتنع الى الدرجة التي تشمر
بالبيض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى .

وكان اللغة العربية بهذه الحركية والحيوية تريد
ان تدفع بابناء الاسلام الى المجد دفعا وتصل بهم في
ظل القرمان الكريم الى ذروة ما قدر لهم من نجاح وهز
وسؤدد ، وتفرس فيهم حب العمل والحركة
والايمتداد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعت
في قلوبهم النشاط وتقشع السكون والاستكانة فلا
ينبغي ان تكون لغة القرمان متحركة حية واهلها
جامدون ساكنون .

ولقد امرت من الحياة في اللغة العربية المالم
النحوي ابو الفتوح عثمان بن جني فوضع القول من
الكلام والقول وانما يدلان على الحركة والسرعة
والقسوة .

وذكر ان معنى « ق و ل » ابن وجدت وكيف
وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره منه
انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست
مستملة كلها لم يهمل شيء منها وهي :

ق و ل ، ق ل و ، و ق ل ، و ل ق ،
ل ق و ، ل و ق .

الاصل الاول : « ق و ل » وهو القول وذلك
ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو
بضد السكوت الذي هو داهية الى السكون الا ترى
ان الابتداء لما كان داخل في القول لم يكن الحرف
المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء داخل في
السكوت لم يكن الحرف الوقوف عليه الا ساكنا .

الاصل الثاني : « ق ل و » منه القلو حصار
الوحش وذلك لخفته واسرعه قال العجاج :

تواضح التقريب قلووا مفلجا

ومنه قولهم : قلو ت البسر والسويق فهما
مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلى جف وخف وكان
اسرع الى الحركة والطف قال :

قد مجبت مني ومن بعيليا

لما راتني خلقها مقلوليا

اي خفيها للكبر طائشا

قال :

وسرب كمين الرمل عوج الى الصبا

بواعف بالحادي حور المدامع

سمن غشاء بعد ما نمن نومة

من الليل فاقولين فوق المضاجع

اي خففن لذكره نزال عنهن نومهن واستلقاوهن
على الارض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقل للوعل ،
وذلك لحركته وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه
وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

قال ابن مقبل:

مودا احم القرا ازمولة وقللا

ياي تراث ابيه يتبع القللا

الرابع : « و ل ق » قالوا ولق يلق اذا اسرع
قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

اي تخف وتسرع وقريه «اذ تلقونه بالسنتكم»
اي تخفون وتسرمون .

الخامس : « ل و ق » جاء في الحديث لا تكل
من الطعام الا مالوق لي .

اي ما خدم وامملت اليد في تحريكه وتلييقه
حتى يطمئن وتضام جهاته ومنه اللوقة للزبدة وذلك
لخفتها واسراع حركتها .

(2) حتنسى : اي مستوية

السادس : « ل ق و » منه اللقوة للعقاب ،
قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتخاء الجناحين لقسوة

دغوف من المقبان طاطات شملا

ومنه اللقوة في الوجه والتقاؤهما : ان الوجه
اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له
مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :

وكانت لقوة لاقت قيسا

واللقوة الناقة السريعة اللقاح وذلك انها
اسرعت الى ماء الفحل فقبلته ولم تنسب عنه نبر
العاسر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها
حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة
والستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ،
ك م ل ، ل ك م ، م ل ك ، م ل ك واهملت
منه ل م ك فلم تات في ثبت .

فمن ذلك الاصل الاول « ك ل م » منه الكلم
للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى:
«دابة من الارض تكلمهم» قولين احدهما من الكلام
والاخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتاكلهم
وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما غلظ من الارض وذلك
لشدته وقوته ، وقالوا رجل كلم اي مجروح وجريم
قال :

عليها الشبخ كالاسد الكلم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل
فهو كامل وكميل وعليه بقية التصرف والتقاؤهما :
ان الشيء اذا تم وكمل كان حينئذ اقوى واشد منه
اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه اللكم اذا وجات
الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سبيله
انشد الاصمعي :

كان صوت جرمها تساجل

هابيك هانا حتنسى (2) تكابل

لدم المعجى تلكمها الجنادل

السابقين الامرة والقضاء وقد جاء في القروان :
« وادبناه الحكم صبيا » اي ادبناه الحكمة

ومن الحكم بمعنى الحكمة اشتقوا « الحكيم »
مثل اشتقاق الطبيب من الطب واللطيف من اللطف ،
والنبيل من النبل وبسبب ازدحام المعاني على كلمة
« الحكم » اقتصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة وبقيت
« الحاكم » تعني الامر او القاضي ولا تعني الحكيم
خلافا للامر والامير والفاضل والفضيل والجاهل
والجهول التي تشترك كل واحدة منها في معنى
صنوها .

وقد كثر استعمال صيغة « الحكمة » لعنى
الحصافة والفتنة لانها ابين من الفرض من لفظة
« الحكم » المزدوجة المعنى ، التي كانت ما تزال
تستعمل في كلا المعنيين عند ظهور الاسلام وهكذا
زال معنى الحصافة من الحكم والحصيف من الحاكم
بدافع من الرغبة في اجتناب اللبس فتخصص
معناها في التسلط والقضاء كما زال معنى الامرة من
« الحكمة » و« الحكيم » فاختص معناها بالحصافة ولما
كانت المحاكمة تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها ،
فقد صارت هذه الكلمة تعني بالاضافة الى ما تقدم
نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا : « فلان قوي
المحاكمة » اي ثاقب البصيرة في تمحيص المسائل
العقلية دون ان يكون للامر علاقة بالقضاء بين
المتحاكمين من الناس .

وفي العهد الاسلامي اطلقت « الحكمة » على
الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات ثم اطلقت
« الحكمة » على الطب وسمي الطبيب حكيما وظاهر
ان سبب ذلك هو ان الكثيرين من « الحكماء » - اي
الفلاسفة زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندي
والخيام وغيرهما .

ولا بأس ان نورد هنا مثلا كان شائما في العراق .
يوم كان الطبيب يسمى حكيما هو قولهم : « لا سلط
الله عليك حاكما ولا حكيما » ولا زال يستعمل في
صعيد مصر .

وهكذا تعددت مناحي تطور هذه الكلمة فصار
لها نشاطها الخلاق في ميادين السياسة والادارة
والقضاء والفلسفة والطب بالاضافة الى معناها
الثقافي العام .

هذه هي الحياة في اللفة العربية حياة جمتها
اكثر مرونة من غيرها من اللغات فانت ترى انها اكثر

الحكمة : كلمة ثقافية جلية وهي كلمة فصامية
نشأت وارتفعت من اصل متواضع اصلها من اربطة
الدواب ، ان الحكمة جاءت من « الحكمة - وزان
السمكة - وهي جزء من لجام الفرس : الجزء المحيط
بالحنك من اللجام قالوا - المرء الاقدمون « حكمت
الفرس واحكمته » - من باب ضربته وادبته بمعنى
وضعت الحكمة في فمه ، ووضعك الحكمة في فم
الفرس يعني سيطرتك عليه ، ومن هنا صار « الاحكام »
وزان الاحسان بمعنى التوثيق والالتقان ، وصار
« الحكم » وزان اللطف يعني السيطرة ، و« الحاكم »
يعني المسيطر والامر والسلطان ، ثم اشتق من هذه
المادة « التحكم » وهو تكلف الحكم او التمسك فيه
وبعد ان ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه
« المحاكمة » فقالوا : « حاكمت الرجل » بمعنى
خاصمته الى الحاكم ، و« حاكم الرجلان » اليه
بمعنى تخصصا اليه « فحكم بينهما » اي اصدر حكمه
فيهما ، ومن هنا صار « الحكم » يعني القضاء اي
الفصل بين « المتحاكمين » ايضا ومن هنا اشتقت
« الحكمة » وهي دار « الحكم » او دار « المحاكمة » او
دار « التحاكم او الاحتكام » ، وصار الحاكم يعني
القاضي وهكذا أصبح للحاكم معنيان : أحدهما :
الامر المسيطر ، والثاني القاضي والقاضي غير
القاضي الشرعي ، يسمى في العراق « الحاكم »
والجمع « الحكام » وبعد ان اخذت الكلمة معنى
القضاء اصبح من السهل اشتقاق « الحكم » - وزان
القلم والتحكيم منها ، كذلك اصبح للتحكيم نفس
المعنيين اي التسلط وطلب الرأي فقالوا مثلا : حكم
الرجل عاطفته او عقله في المسألة بمعنى سلط
عاطفته عليها او عرضها على عقله للوصول الى رأي
فيها ، وقالوا : حكمناه في الخلاف بمعنى طلبنا
حكمه فيه او جعلناه حكما فيه واستعمل عرب
الجاهلية (الحكومة) بمعنى طلبنا حكمه فيه او
جعلناه حكما فيه واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة)
بمعنى : « حكم الحكم » فقال شاعرهم :

ما انت بالحكم الترضى حكومته

ولكننا لا نستعمل « الحكومة » الآن الا بمعناها
السياسي المعروف .

ولما كان الناس انما « يحكمون » الى ذي عقل
وفطنة فقد اصطبغ « الحكم » وزان السكر - بهائين
الخصلتين ، اي العقل والفطنة بالاضافة الى معنييه

فالعربية بحيويتها المدهشة لم تمجز ولم تضق
بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة ،
والعربية لغة القرءان الكريم ، القرءان الذى حفظها
رغم ما مر بها من مصور الركود والجمود وما فشت
فى ظل القرءان تفيض بالقوة والانطلاق .

(للحديث بقية)

اللغات قبولا للاشتقاق ، وجلي ان طريقة العربية
فى توليد الالفاظ بعضها من بعض جعلت من اللغة
جسما حيا تتوالد اجزائه ، ويتصل بعضها ببعض
باوامر قوية واضحة وهذا الارتباط بين الفاظ
العربية الذى يقوم على ثبات عناصر اصيلة خصبة
عظيمة تسمح لنا بالقول بان ارتباطها حيوي وان
طريقتها توليدية .

المراجع

- (1) الخصائص لابن جنى طبعة الفجالة بمصر سنة 1913 م .
- (2) الكامل للمبرد . القاهرة سنة 1956 .
- (3) الطراز لليمنى الجزء الاول .
- (4) ميون الاخبار لابن قتيبة - القاهرة .
- (5) ادبيات اللغة العربية طبعة 1909 .
- (6) الفلسفة اللغوية . جورجى زيدان .
- (7) مقدمة ابن خلدون طبع كتاب التحرير سنة 1966 القاهرة .
- (8) فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان امين .
- (9) تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان الجزء الاول .
- (10) احياء النحو ابراهيم مصطفى 1926 م القاهرة .
- (11) الزهر للسيوطى طبعة دار احياء الكتب العربية
- (12) فقه اللغة للشمالبي المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة .
- (13) فقه اللغة لمحمد المبارك . دمشق 1960 م
- (14) مجلة الاقلام المجلد الاول . العراق .
- (15) مجلة اللسان العربي . الرباط المغرب . « جميع الاعداد الاربعة الاولى » .